بسم الله الرحمن الرحيم

نحن المسؤلون

فضيلة الشيخ/ سلمان بن فهد العوده

.....

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه.

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد إن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أم محمدا عبده ورسوله.

(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما).

اللهم صلي وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد الذي بلغ الرسالة وأدا الأمانة ونصح الأمة وكشف الله به الغمة، فجزاه الله عنا وعن أمة الإسلام خير الجزاء.

أحبتي الكرام:

في هذه الليلة ليلة السبت 29/11/1410هـ تنعقد هذه لمحاضرة.

حياكم الله أيها الأخوة، ونحن الآن في هذا البلد الكريم المضياف في الأحساء.

نحن في هجر التي قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

(أنبئت أن دار هجرتي أرض ذلت حرتين فذهب وهلي إلى هجر).

لقد فكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوما من الأيام أن تكون هذه البلاد هي دار هجرته ومقامه ومنطلق رسالته وبعثته، وفي هذا من الدلالة والإيماء والإشارة ما فيه.

هذه البلد بلد عبد القيس الذين كانوا من أول الناس إسلاما، من أو القبائل إسلاما ووفودا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وخبرهم في الصحيحين :

(قالوا يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا لحي من كفار مضر، وإننـا لا نسـتطيع أن نأتيـك إلا فـي شهر حرام، فأمرنا بأمر فصل نخبر به من ورائنا وندخل به الجنة).

فأخبرهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبشرهم وأمرهم بخمس ونهـاهم عـن خمـس، أو أمرهم بأربع ونهاهم عن أربع).

بلد أشج عبد القيس الذي قال فيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في الحديث الصحيح:

(إن فيك خصلتين يحبهما الله ؛ الحلم والأناة.

قال يا رسول الله أخصلتان جبلت عليهما أم اكتسبتهما؟

قال بل جُبلت عليهما.

قال الحمد لله الذي جبلني على ما يحبه ويرضاه).

أحبتي الكرام:

أقول لكم أن الموضوع الذي سأتحدث عنه موضوع في غاية الخطورة، بلا أدنى إشـكال، وهـو موضوع خطير بالنسبة لكل فرد منا.

بالنسبة لكل مسلم سواء كان أبا أو ابنا

معلما أو طالبا

كبيرا أو صغيرا

مسئولا أو موظفا

مزارعا أو تاجرا، أم أي شيء آخر.

ما دام مسلما فهذا الموضوع في الغاية العليا من الأهمية والخطورة بالنسبة له.

ألا وهو تحديد من المسؤول ؟

وهذا الموضوع مع أهميته، ففيه طرافة وفيه عجب وفيه إثارة جيدة لمن عقل وتفهم وتدبر.

أول نقطة في هذا الموضوع أتناولها كمقدمة إليه هي:

بيان قيمة الفرد في الإسلام.

فنحن نجد أن الإسلام جعل الفرد هو منـاط التكليـف ومركـزه، لـم يخلـق اللـه الإنسـان ملكـا مجبولا على الخير والاستقامة والطاعـة، كمـا أنـه لـم يخلقـه شـيطانا رجيمـا متمحضـا للشـر والفساد، وإنما جعله إنسانا قابلا للهدى والضلال والخير والشر ولإيمان والفجور:
يقول الله تعالى:
(ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها).
ولذلك جعل الله عز وجل الجزاء الأخروي كله منوطا بالعمل الذي تعمله أنت والشيء الذي تختاره، فالله عز وجل يقول مثلا فيما يتعلق بالجزاء الأخروي:
يقال لأهل الجنة كما قال الله عز وجل: (أدخلوا الجنة بما كنت تعملون).
ويقول عز وجل: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شر يره).
ويقول عز وجل: (إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا).
إذا كل إنسان مكلف مسؤول يوم القيامة ومحاسب وموقوف.
يقول الله عز وجل: (وقفوهم إنهم مسؤولون).
الأب لا ينفع ابنه، والابن لا ينفع أباه، والزوج لا ينفع زوجه.
يقول الله عز وجل: (يوم لا يغني مولا عن مولا شيئا ولا هم ينصرون).
من هو المولى ؟
القريب، ابن العم، السيد، الزعيم، الحبيب كل هؤلاء بعضهم مولى لبعض.
يقول الله عز وجل: (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).
ويقول الله عز وجل:
(يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يوم إذ شأن يغنيه).
إذا الإسلام جعل الجزاء الأخروي فرديا، أنت توقف يوم القيامة للحساب فُرادا.
يقول الله عز وجل: (ولقد جئتمونا فرادا كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم).
المال والعبيد والأولاد والسلطان والجاه والمنزلة والمكانة، كلها تركتموها وراء ظهوركم، وجئتمونا فرادا حفاة عراة (كما بدأنا أو خلق نعيده).
إذا هذه بديهية أيها الأحبة:
يجب أن تحيا في نفوسنا، الجزاء يوم القيامة جزاء أخروي كل إنسانا يوقف بمفرده، ما فيه احتمال وإمكانية أن يتبرع أحد لأحد، ولا يستطيع أحد أن يملي جوبا لأحد، هذا غير وارد وغير متصور. المسؤولية فردية.
وكذلك الحال بالنسبة للواقع الدنيوي فإن القرآن الكريم صريح وظاهر في أن كل ما يلاقي الناس في هذه الدنيا من خير أو شر فهو يسبب أعمالهم.
أسمع قول الله عز وجل مثلا:
(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير).
كل مصيبة، حتى المصيبة الدنيوية التي تنزل بك فهي بما كسبت يداك.
ويقول الله عز وجل لأصحاب رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حين انهزموا في معركة أحد، وتعجبوا ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي يهزمون بزعامة محمد ابن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وأمام الطغمة الفاجرة الكافرة من عتاة قريش وفجارها.
يهزمون ويقتل منهم من يقتل، وتسيل الدماء ويسقط الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في حفر أب عامر الفاسق، ويشج رأسه وتكسر رباعيته وتدخل حلقت المغفر في وجنته الكريمة ، بأبي هو وأمي (صلى الله عليه وآله وسلم).
تعجبوا، كيف يحدث هذا ؟
(قالوا أنى هذا) كيف حدث هذا ؟
استغربوا ما كانوا يتصورون أن المؤمن يُهزم أمام الكافر.
فقال الله عز وجل:

(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّا هذا قل هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير).
قل هو من عند أنفسكم، إذا أنتم المسؤولون.
وأنتم السبب دون غيركم في هذه الهزيمة النكراء التي لم تحسبوا لها حسابا.
وكذلك يقول الله عز وجل:
(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا).
فكل فساد يظهر في البر أو في البحر فهو بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا.
حتى حين ينظر الإنسان السطحي المغفل فلا يدرك، فإن العقلاء يدركون أن كل فساد يقع في البر أو البحر أو الجو أيضا فإنه بما كسبت أيدي الناس، وأنه ليس كل العقوبة إنما بعض الذي عملوا، هو مجرد إيماء، تحذير، تنبيه، وخز لعلهم يرجعون.
وفي ما يتعلق بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتعرفون الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال:
(يا معشر المهاجرين خمس خصال إن ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن)
يعني ذكر خمس خصال من المصائب والنكبات وعقوبتها في الدنيا.
لا أريد أن أذكر الحديث فهو بطوله معروف.
لكن مثلا ذكر عقوبة الزنى، وهي ظهور الطواعين والأمراض التي لم تكن في أسلافهم، الهربس الإيدز إلى غير ذلك من الأمراض الجنسية.
ذكر الربا وأنه سبب لأن يبتلى الناس بانحباس المطر عنهم.
ذكر ظلم السلاطين إلى غير ذلك من العقوبات التي رتبها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على بعض المعاصي التي يفعلها الناس في هذه الدار.
إذا هل نستطيع أن نقول أيها الأحبة أننا جميعا مدركون موقنون إيقانا كاملا لا ريب فيه أن الإنسان وحين نقول الإنسان نقصد العاقل، أما المجنون فشأنه آخر، رفع القلم عن ثلاثة، لكن العاقل يدرك أنه مسؤول مسؤولية كاملة عما يفعل في الدنيا وفي الآخرة؟
وأن كل ما يقع من إنسان فردا كان أو طائفة أو أمة أو دولة، أو للبشرية كلها من المصائب الدنيوية أو العقوبات الأخروية فإنما هي بسبب ما عملوا.
هذه نتيجة بديهية مسلّمة لا يلتبس الأمر فيها، ولا يختلف فيها اثنان، ولا ينتطح فيها عنزان (كما يقول العرب).
أنتقل إلى نقطة ثانية وهي مهمة في الموضوع بعد هذه المقدمة وهي الحديث عن واقع المسلمين، وواقعنا نحن اتجاه هذه القضية.
قضية المسؤولية فيما يقع، مسؤولية من؟
أخطر مشكلة تواجه الأمة هي غفلة الفرد عن قيمته، وعن مسئوليته وظنه أنه شيء وكم مهمل لا قيمة له ولا وزن ولا اعتبار، وهذه من أخطر الأمراض التي إذا وجدت فتكت بالناس.
تأتي إنسان فتقول له مثلا:
لماذا تفعل كذا ؟ أو يفعل غيرك كذا أو لماذا حدث كذا ؟
فيقول أنا مسكين، ليس لي دور، ما بيدي شيء، ما بيدي حل ولا ربط ولا أمر ولا نهي، أنا وجودي كعدمه، أنا صفر على الشمال، ويظل الإنسان يوبخ نفسه بطريقة مهينة حتى لكأنك أما م لا شيء، أو أمام إنسان فقد شعوره بذاته وبإنسانيته، وببشريته، وبتكريم الله تعالى له، فضلا عن شعوره بالمسؤولية التي ألقاها الشرع على كاهله، وعلى كتفه.
ولذلك أيها الأخوة تقول الإحصائيات إن عدد المسلمين الآن ألف مليون، مليار إنسان، وعدد المسلمين يعتبر من أعظم الطوائف أو المجموعات التي تدين بدين سماوي في هذه الدنيا، بل لعلهم يحتلون المركز الأول أو ينافسون عليه.

لكن هذا العدد الكبير، ما مدى انتمائهم إلى هذه الدين وارتباطهم به وشعورهم بهذا الانتساب؟
أم أنها مجرد أرقام رصيد له ؟
المشكلة أن الجواب الثاني هو الراجح وأن أكثر المسلمين هم بالصـورة الـتي سـوف أتحـدث عنها وأشير إلى جوانب منها.
في واقع الأمة الإسلامية ضاعت قيمة الفرد في نفسه، وبالتالي ضاعت قيمته في من يتعامل معه.
فمثلا إذا كان الإنسان لا يحس بقيمته، فمن باب أولى أن الآخرين لا يحسون بقيمته أيضا.
الإنسان إذا كان هو نفسه لا يحس بقيمته
زوجته مثلا لا تحس بقيمته، أولاده لا يحسون بقيمته.
المسؤول عنه في الدائرة الحكومية لا يحس بقيمته.
المسؤول عنه في البلد لا يحس بقيمته.
المسؤول عنه في الدولة لا يحس بقيمته.
العدو من باب أولى لا يحس بقيمته ولا يحسب له أي حساب.
مثلا الآن تلاحظون أحبتي أن المسلمين إذا نزل بهم مصيبة يسرعون إلى نداء ومخاطبة الأموات، إما على سبيل الجد وإما على سبيل التعبير والكناية والمجاز.
فكم من مسلم إذا احترق بيته بدلا من أن يقوم هو بالإطفاء أو ينادي المطافئ تجده يصرخ يا فلان يا عبد القادر يا علي حسين يا فلان يا علان.
يريد من هؤلاء الأموات الرفات الذين في قبورهم أن يهبوا من نومهم ليسرعوا بأنابيب المطافئ حتى يطفئوا هذا الحريق الذي يشتعل في بيته.
إذا نزلت به مصيبة من مرض أو فقر أو فقد ولد صار ينادي الأموات.
ومن جهة أخرى تجد بعض المسلمين يعبرون بتعبير له دلالته عن شعورهم بالأسف من الواقع بنداء الأموات، مثلا امرأة تقول الشعر وقد لاحظت ما تعانيه الأمة الإسلامية من فقر وتخلف ومرض وجهل وذل إلى غير ذلك.
فبدلا من ن تنادي نفسها وتنادي أخواتها ومثيلاتها وتنادي المسلمين كما قالت المسلمة الأولى لما أهينت واضطهدت قالت وامعتصماه، تصرخ بالمعتصم الحاكم في بغداد فيقول المعتصم قد أجبتك، ويجهز جيشا مائة ألف ويذهب لعمورية حتى يفتحها.

تسعون ألفا كأساد الشراء نضجت..... جلودهم قبل نضج التين والعنب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت .....عنك المونى حفّلا معسولة الحلب

بدلا من ذك أصبحت اصبحت تنادي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أو تخاطبه فتقول:

يا مرسلا جاء للدنيا فأنقذها.....من البلاء وعافاها من السقم
اذكر لربك أنا أمة جهلة.....فقادها الجهل للبأساء والعدم

واحد آخر شاعر بائس خبيث مخبث وهو الشاعر المشهور قباني، له قصيدة في لحظة من لحظات يقظته وانتباهها من السكر الدائم المزمن، قصيدة طويلة جميلة يتكلم فيها عن واقع الأمة الإسلامية وما حل بها من النكبات والمصائب، ويقول ضمن هذه القصيدة:

وقبر خالد في حمص تلامسه.....فيرجف القبر من زواره غضبا
ورُب ميت على أقدامه انتصب.....يا رُب حي رخام القبر مسكنه
يا ابن الوليد ألا سيف تأجره.....فإن أسيافنا قد أصبحت خشبا

رجعنا ننادي الأموات، عجزنا عن الأحياء فرجعنا ننادي الأموات، يريد من خالد أن يقوم ليـأجره سيفه المسلول الذي انتصر في المعارك الإسلامية. لماذا ؟
لأن أسيافنا قد أصبحت خشبا.
وأذكر شاعرا آخر كان ينادي صلاح الدين ويقول:

قم يا صلاح الدين طهر أرضنا....من كل معترق ومن ماسوني.

المهم صلاح الدين، وخالد وغير خالد والأموات كلهم لا ينفعون الإنسان شـيء، ولا يغنـون عنـه من الله شيء، ولا يجوز للإنسان أن يدعوهم أو يناديهم.
ليس مقصود الآن هو الكلام عن هذه النقطة، لكن مقصودي أن أقول لماذا أصبحنا ننادي الأموات ؟
لأن الأحياء فقدنا ثقتنا فيهم، فقدنا شعورنا بقيمة الأحياء في الوقت الذي نشعر فيه بقيمة الأموات، ونعرف ماذا صنع خالد ابن الوليد، ونعرف ماذا صنع صلاح الدين، ونور الدين وعماد الدين ولذلك نناديهم نريد أن يجددوا لنا الأعمال.
طيب لماذا لا ننادي محمد وصالح وعلي وأحمد وإبراهيم من الأحياء الذين يعيشون على أقدامهم، لماذا لا نناديهم لأنهم أموات.

ورُب ميت على أقدامه انتصب.....يا رُب حي رخام القبر مسكنه

فنحن نشعر بأن لا قيمة لهم لا تأثير، لا يحسون بالمسؤولية فننادي غيرهم.
هذه صورة تدلك على عدم شعورنا بالمسؤولية اتجاه هذه الأعمال.
صورة أخرى من صور الغيبوبة التي نعيشها نحن الآن كأفراد، ونعيشها أيضا كأمة، وهي قضية عدم اعتبار المسلمين، وعدم النظر إلى إرادتهم.
كم من موقف أو عقد أو تصرف يفعله إنسان واحد بالنيابة عن الأمة كلها، أو بالنيابة عن قطاع كبير من الأمة جزء من الأمة. لم يأخذ فيه رأي مع أنه أمر مصيري يتحدد بناء عليه أشياء كثيرة.
على سبيل المثال قضية الصلح مع اليهود، هذه القضية ليست قضية فرد بعينه، ليسـت قضـية محمد أو صالح أو علي أو أحمد أو فلان، هذه قضية الأمة كلها.
فمن هو الذي خول شخصا من الأشخاص أن يتصرف بالنيابة عن المسلمين كلهم ليبرم صلحا أو لا يبرم صلحا، أو يتقدم أو يتأخر أو يسالم أو يحارب أو ما أشبه ذلك؟
هنا غيبة المسلمين أو غيبوبتهم جعلت إرادتهم معدومة، لا أحد ينظر إلى إرادتهم، لا أحد يأخذ رأيهم أو يستشيرهم، لماذا ؟
لأنهم هم أنفسهم فقدوا شعورهم بقيمتهم كأفراد، فقدوا شعورهم بقيمتهم باعتبارهم مسلمين مكلفين محاسبين ومسؤولين حتى في الدنيا مسؤولية تاريخية، فقدوا ذلك وبالتالي الناس فقدوا شعورهم بهم وصاروا يتصرفون دون الرجوع إليهم، فصار الأمر كما قال الأول:

ويقضى الأمر حين تغيب تيم.....ولا يستأمرون وهم شهود

صورة ثالثة، تسمعون يوما من الأيام أنه في روسيا قتل ستة من اليهود، فقامت الدنيا وما قعدت، وأجهزت الإعلام تشتغل ليس في إسرائيل فقط بل في دول العالم الغربي كله ليلا نهار.
لماذا حقوق الإنسان مهدرة؟
لماذا يقتل هؤلاء، بأي جرم، وما هي المحاكمة التي تعرضوا لها؟
أين مواثيق الأمم المتحدة؟ وهكذا نسمع جلبة.
ستة من اليهود، ثم ماذا ؟
ستة من اليهود من أخوان القردة والخنازير، لا وزن لهم ولا قيمة ولا اعتبار، (إنهم إلا كالأنعام بل هم أضر).
لكنهم يشعرون بقيمتهم وبالتالي قومهم يشعرون بقيمتهم فيحركون العالم كله أمام هؤلاء الذين قتلوا.
لكن بالنسبة للمسلمين؟
ما هي مسالة ستة أو ست مائه، المسالة بالألوف، وأحيانا شعوب بكاملها تباد بأكملها، ولا أحد يتحرك، دمائنا رخيصة عند قومنا وعند الأعداء، أما الأعداء فلا يلامون، لكن المشكلة أن دمائنا رخيصة حتى عند أقوامنا، وتأتي قضية (أكلت يوم أكل الثور الأبيض أو السود).
المهم أن المسلمين دمائهم رخيصة تسفك، ولعلكم يوميا تسمعون وجبات من دماء المسلمين، كما نجد الآن من آخر القضايا قضية كشمير.

حينما تقرأ الأخبار، والله الذي لا إله غيره أننا نشك في صدقها، مع أن الإنسان أحيانا مقتنع أنها صحيحة، ولكن من شدة غرابة الخبر وسكوت أجهزة الإعلام عنه، يقول الإنسان معقول ؟
معقول يقتل هؤلاء الآلاف المؤلفة ؟
معقول تباد قرى باكمالها وأحيانا بالقنابل ؟
وأحيانا بالأسلحة الكيميائية ولا أحد يتحرك ولا أحد يلتفت ؟
نعم معقول، لأن هؤلاء المسلمين أو كثيرا منهم فقدوا إحساسهم بقيمتهم ففقد الآخرون الإحساس بهم، وفقدوا الترابط الذي هم نتيجة للشعور بأننا أصحاب هم واحد، كما كان يقول الشاعر أحمد شوقي:

نصحت ونحن مختلفون دارا.....ولكن كلنا في الهم شرق

نحن نقول كلنا في الهم إسلام ومسلمون.
فلو كان كل إنسان يحس بمسئوليته عن نفسه حقيقة لأحس بمسئوليته عن إخوانه في كل مكان مصداقا لقول الحق عز وجل:
(إنما المؤمنون أخوة).
وقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):
(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى).

تخلي المسلمين عن مسؤولية ما يحدث:

صورة أخرى من صور تخلينا عن المسؤولية، لو سالت أي فرد منا، ودعونا ممن هم خارج المسجد الآن، خلونا واقعيين حتى ما نتكلم عن أحد غائب من أجل يكون الكلام له قيمته يعتبر كل فرد أن الخطاب يخصه دون غيره.
لو سألنا إخواننا الموجودين في المسجد:
هل أحد منا يشعر أن له دور أو مشاركة في قضية احتلال اليهود لفلسطين ؟
أو احتلال الروس لأفغانستان، أو انتشار المنكرات في المجتمع مثلا ؟
أو في ضعف الأمة الإسلامية ؟
أو بالتخلف العلمي الذي نعيشه ؟
أو في الوضع الاقتصادي المتردي الذي تعيشه الأمة ؟
قد تجد تسعين بالمائة على الأقل يقول لا ليس لي دخل، أنا ليس لدي دور، أنا قائم بعملي خير قيام وليس لي بأعمال الناس: (ولا تزر وازرة وزرا أخرى).
إذا فقدنا شعورنا بالأحداث الكبار، دعك من الأحداث العالمية مثل قضية سقوط لشيوعية، أو قضية التحالفات الجديدة، هذه أمور وأحداث عالمية دعك منها.
لكن دعونا في الأحداث الإسلامية، بل دعنا من الأحداث الإسلامية البعيدة، دعنا في الأحداث الإسلامية القريبة التي تحدث في المجتمع.
والله أكثرنا يقول:
ليس لنا علاقة، من نحن ؟
إنسان في أخر المشوار و في أخر القائمة، يعني نقطة لا وزن لها ولا اعتبار، هذا تقديرنا لأنفسنا.
وهكذا أصبحنا نعيش سلبية قاتلة اتجاه كل ما يحدث قريبا كان أو بعيدا.
حتى صح وصدق علنا قول القائل:

ما أكثر الناس، لا بل ما أقلهم ..... الله يعلم أني لم أقل فلتا
إني لأفتح عيني حين فتحها..... على كثير ولكن لا أرى أحدا

وأذكر لكم قصة أو نكتة في الواقع:
أحد العلماء كان عنده خلق كثير من الطلاب، له حلقة يحضرها ألوف، فخشي من الحاكم أو السلطان، وقال هذا العالم له جمهور وله رواد.
فأحضره يوما من الأيام وقال له:
في لواقع أني غير مرتاح لهذه الجموع الغفيرة التي تجلس عندك، وإني أخشى منهم.

قال له العالم، لا تخف من هؤلاء، ما عندي أحد.
قال كم عندك في الحلقة ؟
قال عندي واحد ونصف، فضحك الحاكم وقال لقد حضرت الحلقة ورأيتهم ألوفا مؤلفة.
قال أبدا، أصدقك الحديث ما عندي إلا واحد ونصف.
قال كيف، قال العالم سوف أريك الآن.
فأخذ بيد الحاكم وخرج به إلى الردهة يطلون على الشارع.
جاء الناس إلى المسجد يريدون الحلقة فما وجدوا الحلقة، سألوا أين الشيخ أو أين العالم؟
قيل ذهب إلى السلطان فقد دعاه.
فكل ذهب إلى حال سبيله، هذا في دكانه، وهذا في مزرعته، وهذا في مدرسته، وبعضهم يركض ركضا لا يدري أحد أنه ينتسب إلى هذه الحلقة، والثالث والرابع المهم لاذوا بالفرار.
ثم جاء فلاح عل كتفه آلة الحراثة فقال أين الشيخ ؟ قالوا ذهب إلى السلطان.
فلم يلوي وذهب حالا إلى السلطان، فلم وقف أما القصر ووجد الجنود والحرس والأعوان والشرط والسياط والسيوف، فلم يلتفت إليهم بل صار يشق الصفوف شقا.
فقال العالم للحاكم، أترى هذا ؟ قال نعم. قال هذا واحد.
فقال الحاكم طيب أين النصف ؟ قال يأتيك الآن.
بعد قليل جاء إنسان فصار يتقدم خطوة ويتأخر خطوة، ويلتفت يمنة ويسرة، ويريد أن يدخل ثم يرجع، ثم يريد أن يدخ ثم يرجع.
فقال العالم هذه هو النصف، ولو وجد آخر مثله لمسك بيده ودخلوا مثل الأول، ولكن ما وجد أحد فهو نصف رجل يحتاج إلى نصف ثاني ليكمله.
إذا الأمر كما قال أحد شعراء الشام وهو يصف مصائب المسلمين و يتحدث عما نزل بهم فيقول:

مالي أرى الصخرة الشماء من كمد.....تذوي وعهدي بها مرفوعة العنق
ومنبر المسجد الأقصى يئن أسى..... قد كان يحبوُ الدنى من طهرها الغدق
اليوم دنسه فجر ألم به من..... غدر شعب اليهود الداعر الفسق
وللعذارى العذارى المسلمات على..... أعواده رنة الموفي على الغرق
لو استطاع لألقى نفسه حمما.....صونا لهن ودك الأرض في حنق
وظلت الكعبة الغراء باكية.....وغم كل أذن غمة الشرق

هذه مصائبنا، ثم يقول:

كثر ولكن عبيد لا اعتداد به.....جمع ولكن بديد غير ملتصق

إذا مصائب كثيرة بعددها، لكن نحن بكثرة لا اعتداد بنا، ليس لنا مواقـف صـحيحة صـريحة، ولا قوة ولا شجاعة، ولا شعور بقيمتنا، ولا شعور بمسئوليتنا.
وأذكر في هذه المناسبة مثلا موجود عن بعض الشعوب يقول:
(أن المشاكل التي نعانيها صنعها من قبلنا، وسيحلها من بعدنا، أما نحن فأبرياء).
إذا نحن ليس لنا من الأمر شيء، صنع لمشاكل التي نجدها ونعانيها ونصطلي بنارها صنعتها أجيال سابقة، ولن نحلها تحن إنما سيحلها الجيل اللاحق.
أما نحن فخرجنا لنصبح بين القوسين ليس لنا من أمر شيء، لم نصنع هذه المشكلات، يعني لم نعترف بخطئنا في المشاركة، وبالتالي لم نعترف بدورنا الملقى على عواتقنا بوجوب حل هذه المشكلات أو المساهمة في حلها.
هناك تحديا كثيرة تواجه الأمة الإسلامية.
وسوف أضرب بعض الأمثلة لهذه التحديات أيضا، وإلا فالواقع أن الموضوع طويل كما أسلفت:
مثلا من التحديات المستوى العلمي والحضاري والاقتصادي المتردي للأمة الإسلامية:
هذا أمر الكلام فيه واضح، فالأمم الغربية سبقتنا بمراحل في هذا الباب، بل نحن لم ندخل حلبة السباق إلى الآن، ولم نتسأل عن سبب هذا التخلف ومن المسؤول عنه ؟

تجد لا أحد منا يستطيع أن يقول نحن المسؤولون عن هذا الأمر، بل قد نحّمل المسؤولية جهات أخرى، قد نحّملها مثلا الحكام، أو نحّملها جيلا معينا، أو نحّملها الظروف إلى غير ذلك من الأشياء التي نعلق عليها أخطأنا كما سوف أشير إليها في نهاية المحاضرة.
من التحديات التي تواجه المسلمين اليوم قضية وجود اليهود.
واحتلالهم لأراضي المسلمين وتوسعهم يوما بعد يوم، طيب كم عدد المسلمين ؟
قلنا ألف مليون مسلم كما تقول الإحصائيات ؟
وكما قال الأفغاني أو غيره :
(لو أن كل مسلم نفخ على اليهود نفخة لطاروا).
ألف مليون لو كل واحد نفخ جهة إسرائيل لطارت إسرائيل من هذه العواصف.
ويقول آخر :
(لو كل مسلم بصق على اليهود بصقة لغرقوا).
هذه حقيقة، يعني لو أن كل إنسان قام بدوره ولو دور ضئيل جدا لكانت النتيجة أننا استطعنا أن نطرد اليهود، ونفس الكلام يقال على الشيوعيون الذي يحتلون أفغانستان، أو النصارى الذي يحتلون بعض البلاد الإسلامية.
الكلام واحد لو أن كل مسلم أدى دوره لزالت تلك المشكلات.
من التحديات قضية المنكرات.
المجتمع بلا شك مليء بالمنكرات ظاهرة ومستترة على كافة المستويات:
منكرات إعلامية.
منكرات اقتصادية.
منكرات اجتماعية، إلى غير ذلك من أنواع المنكرات.
ولم نأتي نتسأل من المسؤول عن إزالة هذه المنكرات ؟
لا يوجد أحد إلا من رحم الله يستطيع أن يقول أنا مسؤول إلا النادر.
ولذلك يقول لي أحد الأخوة من طلاب العلم:
يقول عجبت حيث التقيت بأناس كثيرين حتى من طلاب العلم، بل حتى من العلماء فما تشتكي لواحد منهم منكرا، إلا ويقول اذهب إلى فلان، انظر فلان، تكلم مع علان، قولوا كذا أو افعلوا كذا.
يكتفي فقط بالتوجيه إلا شخص واحد من خلال تجربتي - وهذا رأي المتحدث – إلا شخص واحد وهو سماحة الوالد الشيخ عبد العزيز بن باز (رحمه الله).
ما ذكرت له يوما من الأيام منكرا أو خطئ وقال لي اذهب إلى فلان أو علان أو أفعل كذا.
وإنما قال نفعل إن شاء الله، نخاطب الولاة، نتحدث، ننكر، نبلغ.
يعني رجل يشعر بمسئوليته هكذا تستطيع أن تصفه.
طيب أريتم لو أننا قاطعنا المنكرات، ما لذي يحدث ؟ سوف تكسد أسواقها.
مثلا شريط سيئ أو أغنية، مجلة، كتاب، أي بضاعة محرمة لو قاطعناها من يشتريها ؟
لا أقول سوف تكسد أو تنقطع عن هذه البلاد بل ستتوقف عن الصدور، فإن كثيرا من المجلات والكتب وغيرها تجد في أسواق هذه البلاد من الرواج والانتشار ما لا تجده في أي بلد آخر.
فلو كل واحد منا قاطع هذه الأشياء، مجرد حل سلبي ومشاركة سلبية أنك تقاطع هذه المنكرات لانتهت هذه المنكرات وزالت.
بنوك الربى، لو أن كل واحد منا لا يتعاطى الربا، ولا يودع أمواله، ولا يأخذ الفوائد لانتهت.
لكن أنا وأنت والثاني والثالث نقول حرام ونأخذه، وبالتالي أصبحنا نعمر بأيدينا وبأموالنا وبجهودنا هذه المنكرات التي نتحدث عنها ونقول أنها منكرات.
أمر ثاني حينما ترى منكرا فما دورك ؟
تقول ليس لي دور، وأقول والله لا يوجد أحد يا أخواني ليس له دور، وأضرب لكم مثلا بسيطا.
قبل شهر فتحت صندوق البريد فوجدت فيه رسالة، ففتحتها فوجدت فيها خطاب من شاب مجهول لا أعرفه أو شيخا أو غير ذلك يقول لي:

فلان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد، يصلك مع هذا الخطاب قصاصة من جريدة كذا وفيها إعلان عن حفل غنائي سوف يقام في بلد كذا في يوم كذا وهو حفل مختلط كما يدل عليه الإعلان، نرجو أن تقوموا بما تستطيعون في هذا المجال. ووجدته أرفق مع الخطاب قصاصة من إحدى جرائدنا المحلية وإذا فيها:
(إعلان عن حفل يقام بعد عيد الفطر المبارك، وحفل مختلط للعائلات رجال ونساء يحييه الفنان المحبوب فلان، والفنان الموهون علان.، وللحجز والاستفسار اتصلوا بوكالة كذا هاتف كذا).
التوقع أن هذا الشاب كتب عدة رسائل لعد ة أشخاص، فقام بدوره، فلما وضع أمامي القضية وجدت أن الأمر سهل، ولا يتطلب مني أنا أيضا أكثر من أن أتصل بالهاتف على هذه الوكالة من أجل المناصحة والمحبة في الله.
وفعلا اتصلت فقالوا لي أن هذا قد الغي وكتبنا في لجريدة نفسها اعتذارا، وكان خطئ وقعنا فيه، وأبلغنا الجهات المختصة بطريقة الوقوع في الخطأ حتى لا يتكرر في غيرنا، وكان ذلك بفضل الله وبفضل تدخل الطيبين الصالحين طلاب العلم، وإن شاء الله نعدكم أنه لن يتكرر.
هذا جيد، هذا حسن، إذا الغي الحفل بسبب بالتأكيد خطوة كالخطوة التي حدثت.
ومثال آخر:
يوما من الأيام أعلن في أحد الجمعيات، يسمونها جمعيات الثقافة من باب تسمية الشيء بضده، كان أعلن في إحدى هذه الجمعيات بأنه سوف يقام دورة للتدريب على الموسيقى للصغار من سن ثلاثة عشر إلى ثمانية عشر.
أحد الصالحين صور الخبر الذي فيه هذا وكتب رقم هاتف الجمعية كي يتصل بهم ويناصحهم من يحب أن يقول لهم كلمة طيبة،والكلمة الطيبة لا تضير، ثم أرسلها إلى بعض فلان من الناس الذين يعتقد أنه سوف يكون لهم تأثير. وفعلا كان لهذه القضية تأثير.
وحتى لو لم يترتب عليها إلغاء مثل هذه الدورة، سيترتب عليها أنه في المرة الثانية يحسب الإنسان ألف حساب لمثل هذا العمل الذي يواجه به المجتمع ويقوم به بأمر لا ينفعنا لا في دنيا ولا في دين.
إذا يمكن لك أن تفعل شيئا، بالخطاب، بالهاتف، بالكلمة الطيبة، بالنصيحة، بالمراسلة، بأي شيء، وأضعف الإيمان المقاطعة، لا تفعل المنكر، ولا تجلس في المكان الذي يُفعل فيه، ولا تساهم فيه بشكل من الأشكال، هذا أضعف الأيمان.
مثالا آخر، قضية التبرعات:
المسلمون يمرون بتحدي اقتصادي، وأي مشروع في الدنيا لابد له من مال، الجهاد في أفغانستان أو الفليبين أو إريتريا أو فلسطين.
المشاريع الدعوية تحتاج إلى المال.
المسلمون المنكوبون من المهاجرون في أفغانستان أو في السودان أو في غيره يحتاجون إلى المال، إلى كسرة الخبز، إلى الغذاء، إلى الكساء الذي يسترون به عوراتهم، هذا تحدي كبير.
طيب من أين نجمع هذه الأموال ؟
تجد كل واحد منا يقول مالي دور، المسؤول فلان، ويشير إلى ثري من الأثرياء.
لماذا ليس لك دور يا أخي ؟
لو رجعنا إلى الرقم الذي رددناه مرارا، ألف مليون مسلم.
نريد من كل واحد أن يعطينا ريالا واحدا فقط، أحد ما يستطيع ؟
والله نعطي أطفالنا أحيانا عشرة، ومائة، و ألف ريال ونشتري لهم اللعابا بأغلى الأثمان.
إذا نريد ريال واحدا، معناه أننا بحملة تبرعات واحدة سنجمع ألف مليون ريال، كل واحد ما أعطانا إلا ريالا واحدا.
إذا فالقضية الأساسية أيها الأخوة هي فقدان كثير من المسلمين الشعور بذاتهم، الشعور بقيمتهم، الشعور بدورهم ومسئوليتهم، وبالتالي تعطلت كثير من الأعمال، وأصبح من الصعب تحديد المسؤول عنها، ولذلك أقول الخلاصة من النقطة السابقة:

أننا نعمل قدر المستطاع على سبيل الحيلة النفسية أن نتخلص من المسؤولية لنلقي بها على الآخرين، يعني قد ندرك أحيانا أننا مسؤولون، ولكن من باب الخداع، خداع النفس نحاول أن نتخلص من المسئولية بأي شكل لنلقي بها على فلان أو على علاّن.

أنتقل إلى نقطة ثالثة في هذه المحاضرة وهي قضية من المسؤول؟

إذا في نظرنا نحن المسلمين الذي غاب عنا إحساسنا بشخصياتنا وقيمتنا وإنسانيتنا ودورنا المنتظر، نلقي بالمسؤولية على جهات شتى:

أولا القضاء والقدر:

فإذا نظرنا إلى المصائب التي تنزل بالأمة، النكبات واحتلال البلاد، التدمير، المشاكل والتخلف، قلنا هذا بقضاء الله وقدره، وربما يذهب بعضنا إلى أن يستدل بالأحاديث الواردة في آخر الزمان وما ينزل بالمسلمين من الفتن وغربة الإسلام وما أشبه ذلك.

طيب القضاء والقدر لم يمنع الكفار من أن يتقدموا بعدما بذلوا الأسباب واستفرغوا الإمكانيات ومشوا في طريق، فما منعهم القضاء والقدر من أن يتقدموا، ويمشوا خطوات، أبدا.

والإنسان هو الذي يصنع واقعه بنفسه، والقضاء والقدر غيب مكتوم لا يعلمه إلا الله عز وجل، فهو سر لا يعلمه الإنسان، المتخلف المتأخر المقصر ما علم أن هذا قدره حتى نفذهن إنما فعل هذا بنفسه ثم بعدما وقع ما وقع أحتج بالقدر.

مثل ذلك تماما قضية الاحتجاج بالقضاء والقدر على المعايب وعلى المعاصي، فإنك إذا تأتي إنسان عاصي فاسق هو بنفسه يخطو خطوات إلى الرذيلة ويمد يده إلى الحرام، ويفتح فمه للقمة الحرام، ويلبس الحرام، ويركب الحرام، ومع ذلك إذا قلت له يا أخي لماذا ؟ قال يا أخي قضاء وقدر.

يا سبحان الله، قضاء وقدر! هذا شأن المشركين :

(سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من شيء). هكذا.

(وقالوا لو شاء الله ما عبدناهم).

(وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله، قال الذين كفروا للذين أمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه).

أربعة مواضع في القرآن الكريم ذكر الله فيها أن الاحتجاج بالقضاء والقدر على المعايب والمعاصي إنما هو شأن الكفار والمشركين.

أما المؤمن فيعلم أن القضاء والقدر واقع، وأن كل شيئا بقضاء وقدر لكن يجعل المسؤولية مسئولية نفسه كما قال أبونا عليه الصلاة والسلام لما وقع في المعصية وأكل من الشجرة ما قال قضاء وقدر، بل قال هو وزجه:

(ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين).

ويقول بعض أهل العلم أن من وقع في المعصية فأحتج بالقدر ففيه شبه من إبليس لأن إبليس لما رفض أحتج بالقضاء والقدر.

ومن وقع في المعصية فأستغفر وقال ربنا ظلمنا أنفسنا ففيه شبه من أبيه أدم ومن شابه أباه فما ظلم.

إذا ليس صحيحا أن يخطئ الإنسان فيحتج بالقضاء والقدر، أو يقعد عن العمل فيحتج بالقضاء والقدر، بل الواقع أن القدر غيب من غيب الله تعالى لا يعلمه إلا الله، والإنسان مطالبا بأن يعمل ما ينفعه في عاجل مره وآجله، في دنياه وأخرته على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي.

أما الأمر الثاني الذي نعلق عليه أخطائنا **فهو الشيطان:**

والشيطان مسلط على بني آدم لا شك، وقد نهانا الله عن أن نتخذه وليا وأمرنا أن نعاديه فقال:

(إن الشيطان لكم عدوا فاتخذوه عدوا).

لكن أيضا الشيطان لم يكن ليبلغ فينا ما بلغ لو لا أنه وجد عندنا قابلية.

يعني جرثومة الفسق والانحلال والطاعة للشيطان كانت موجودة في نفوسنا، فلما نفث الشيطان وأرسل أشعته المفسدة المضلة وجدت عندنا قابلية وامتصاص في قلوبنا، فأفرزت وأثمرت انحرافا وانحلالا قال عز وجل:
(إنه ليس له سلطان على الذين أمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون).
إذا الشيطان لم يكن ليحقق فينا ما يريد لولا أنه وجد عندنا استجابة، ولذلك هو نفسه يوم القيامة يقوم خطيبا بأتباعه:
(وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم).
لاحظ الأمور يوم القيامة برحت وانكشفت وبانت، ولم يعد هناك مجال للتلاعب والتحايل واللف والدوران، أصبحت القضية مكشوفة, وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم.
إذا الذي يحتج بكيد الشيطان هو أصاب من جانب فإن الشيطان يكيد، لكنه غفل عن الجانب الآخر أن القابلية لهذا الكيد موجودة عنده.
تماما مثل الجراثيم التي تنتشر أحيانا في الهواء، فهذا إنسان قد أخذ طُعم ضد هذا المرض فلا يضره ولا يؤثر فيه، وذاك إنسان آخر حسمه ضعيف وهزيل أصلا فوجد فيه قابلية ففعلت الجراثيم فعلها فيه، فقد تكون مرضته أو ألقته صريعا ميتا.
أمر ثالث نعلق عليه أخطائنا الظروف والأوضاع لتاريخية الموروثة أو ما نسميه بالزمان:
كثيرا ما نتكلم عن الزمن والحال وتغير الزمن وننسى:
أن لشمس التي تطلع علينا هي الشمس التي طلعت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأبي بكر وعمر.
وأن القمر الذي يطل علينا هو الذي كان يطل عليهم.
وأن الأرض التي نسكنها هي التي سكنوها، والسماء التي تظلنا هي التي أظلتهم.
فالأمور لم يتغير بها شيء والكون هو الكون والحياة هي الحياة والأجرام السماوية هيَ هي، والزمان هو هوَ والليل والنهار هما هماَ والأمر كما كان الأمام الشافعي رضي الله عنه يقول:

نعيب زماننا والعيب فينا.....وما لزماننا عيب سوانا
وقد نهجوا الزمان بغير جرم.....ولو نطق الزمان بنا هجانا
وليس الذئب يكل لحم ذئب..... ويأكل بعضنا بعضا عيانا

نعيب زمان والعيب فينا، وما الزمان ؟
الزمان ليس له حقيقة إلا من خلال وجود إنسان يمر به الوقت فيستخدمه في طاعة أو في معصية في خير أو في شر، في صلاح أو في فساد، ولذلك تلاحظون أن الرسول نهى عن ذلك كما في الحديث القدسي في الصحيحين عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قال يقول الله عز وجل:
(يؤذيني أبن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)، وفي رواية (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر).
وليس المقصود أن الدهر أسم من أسماء الله تعالى، كلا وإنما بين (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك بقوله في ما يرويه عن ربه أن الله تعالى قال:
(بيدي الأمر أقلب الليل والنهار).
يعني أن الدهر إنما هو مخلوق لله عز وجل يمر على الناس ويتقلب عليهم بإرادة الله تعالى.
والناس يفعلون في هذا الدهر ويملئونه بما شاءوا، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه.
الأمر الرابع الذي نلقي عليه أخطاءنا هي قضية البيئة والمجتمع وانتشار الفساد فيها:
وهذا كثيرا ما نتكلم عنه، فإذا واحد منا يفعل عادة سيئة كبيرة أو صغيرة، أفترض أنه يدخن مثلا فتقول له لماذا ؟ فيقول عادات اتخذناه عن الوالدين عن الزملاء عن الجيران، عادات تلقيناه.

فأصبح الواحد منا كأنه مجبور لا خيار له أما هذه العادات.
وكأن الإنسان حين إذ ليس له شخصية ولا طاقة ولا اختيار، إنما هو إنسان يسمع ما يقول له المجتمع فينفذ وكأنه مرآة ينعكس عليها ما يقع في حال الناس، وهذا أيضا غير صحيح بل نحن شاركنا في صنع هذه العادات من جهة وأوجدنا، ومن جهة أخرى استأسرنا لها وقبلناها.
يقول أحد الدعاة كان هناك خطيبا يتكلم على المنابر، وفي يوم من الأيام تكلم عن قضية غلاء المهور، وكثيرا ما ينصح الناس ويؤكد عليهم ويلومهم ويسوق النصوص على ذلك.
كان عنده بنت فجاء من يخطبها فطلب منه مهرا كبيرا، فقال له أنت أمس تتكلم عن الموضوع هذا، قال الخطيب وهل تريد لابنتي أن تكون أقل من بنات الناس.
طيب أين ما كنت تقوله لنا بالأمس ؟
قال هذه عادات الناس هذا المجتمع إذا الناس غيروا أنا أغير.
طيب من يعلق الجرس ؟
هنا أصبحنا كما يقال ندور في حلقة مفرغة، ونستأسر للعادات والعادات الاجتماعية والظروف القائمة وكأننا نعيش في جبرية لا مفر لنا منها.
وحتى في الأمور الأخرى على مستوى أوسع حين نظر مثلا إلى قضية الاتجاهات العلمية.
فالأمة بحاجة إلى علماء، إلى أطباء إلى مهندسين إلى مخترعين ومبتكرين وإلى اقتصاديين يحملون هم الإسلام قبل ذلك وبعده.
كثر من الناس لا يهتمون بهذه القضايا ولا يكترثون لها، لماذا ؟
نهم استوحوا إتجاهتهم من خلال نظرة المجتمع ومن خلال واقع الناس، وغفلوا عن الأمر الآخر.
حتى أنك قد تجد أحيانا متخصصا ناجحا في تخصصه، فيدع هذا التخصص ويتجه ليعمل عملا يمكن أن يقوم به غيره، بينما هو يحمل تخصصا نادرا لم يهتم له، لماذا ؟
لأن المجتمع لم يكترث به ولم يلتفت له.
الأمر الخامس الذي نعلق عليه أخطاءنا هو قضية الطبيعة والجبلة الموروثة والأخلاق المأخوذة عن الأباء والأجداد.
فكثير من الناس يحتج بأن هذه طبيعة، أبي كان كذا وجدي كان كذا، وأنا أعترف أن هذا له رصيد من الواقع أحيانا وأقر ب مثال قضية الوسواس.
الوسواس من أسبابه حيانا أسبابا وراثية، فتجد أنه قد يكون في الجد فينتقل إلى الأب ثم الابن بصورة أو بأخرى، هذا قد يحدث لكن ليس صحيحا أن الإنسان مجبور على ما هو مجبول عليه أو على ما ورثه من آبائه أجداده، بل إن التهذيب وارد وممكن، ولذلك تجد الشرع أمر بأخلاق معينة ونهى عن أخلاق معينة، وتجد أن لتربية يمكن أن تصوغ الإنسان صياغة جديدة وتغير مجرى حياته، وتبدل بعض الأخلاق الموجودة عنده وتجدد فيه أخلاقا أخرى حميدة.
فليس صحيحا أن الإنسان يقع أما جبرية حتمية إلزامية لا مفر منها اتجاه ما كسبه من آبائه وأجداده أو اتجاه الطبائع الموروثة.
إضافة إلى أن كل جبلة أو طبيعة فيها إيجابيات، نعم أنت قد تكون ورثت عيوبا من أبيك وجدك، تقول مثلا من طبيعتنا أننا فرضا عندنا جبن وخوف، هذا ورثناه ما نريد ولكن طبيعة.
نعم لكن أيضا آبائك وأجدادك عندهم كرم وأريحية وشهامة ومروءة، لماذا حاولت أن لا تقلدهم في هذه الخصال الحميدة ؟ فبرزت عندك الخصال الذميمة، واختفت عندك الخصال الحميدة.
الأمر السادس الذي نعلق عليه أخطاءنا فهو قضية طبيعة الشعوب:
أحد المستشرقين الخبثاء وأسمه المستشرق (جب)، له دراسات عن المسلمين وعن الأمة الإسلامية، فيحاول هذا الخبيث أن يوحي للمسلمين بأنهم يعيشون نوعا من التخلف العقلي الموروث. فيقول:
(طبيعة الشعوب الإسلامية فيها ضعف، عدم قدرة على التخطيط، ليس عندا بعد نظر).
وهذا أمر في غاية الخطورة لأنه يريد أن يلقي للمسلمين بإيحاء مؤداه أن لا تحاولون أنتم مخلوقون هكذا، وإلا فهذا الأمر منقوض علميا ومنقوض تاريخيا، فلو أتيت بمخ من يسمونه

(أنشتاين) صاحب نظرية النسبة، ومخ أي إنسان من المسلمين أو من غير المسلمين قد لا تجد فيه فرقا كبيرا.
ولا تجد أن هناك شعوبا تتميز بذكاء عن غيرها من الشعوب، بل الأمر مشاع بين الخلق كلهم.
أما من الناحية التاريخية فالحضارة في يوم من الأيام كانت هنا، والتقدم العلمي كان هنا، والأسماء اللامعة في مجال الاختراع والطب وغيرها كانت من الأسماء الإسلامية، وقد قام المسلمون بدورهم ببناء وتشييد العلم والتقدم والحضارة بما هو معروف، ولا زالت أوربا تعيش على المناهج العلمية التجريبية الإسلامية.
فنحن قدنا البشرية في يوم من الأيام، وملكنا أقاليم البلاد، وأذعنت لنا الدنيا، وأثبتنا الجدارة في هذا الأمر، وجربنا فنجحنا.
إذا ليست القضية كما يزعم (جب) أو غيره من أعداء الإسلام.
الأمر السابع الذي نعلق عليه أخطاءنا هو أننا نلقي باللوم على العلماء:
فإذا رأينا ما رأينا قلنا أهل العلم، أو فلان أبن فلان، وقد يستشهد بعضنا بالحديث الذي رواه أبو نعيم عن ابن عباس:
(صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس).
تجد أننا نحمل المسؤولية العلماء، وكل ما حصل شيء قلنا فلان الله يهديه، وفلان ما قام بدوره، وفلان ما أدى واجبه، وأحيانا نعمم فنقول أن العلماء لم يقوموا بدورهم ولم يؤدوا واجبهم.
ولست أنكر أن العلماء لهم دور أكثر من غيرهم، وهم رواد الأمة وقوادها وزعمائها الذين يجب أن تكون الأمة كلها ورائهم، لكن يجب أن نتفطن هنا أن إلى القضية الخطيرة والخطيرة جدا: قضية دورنا نحن كأفراد، العالم لا يقوم بدوره إلا إذا كان ورائه أفراد كثيرون مثلنا، كما كان يقول الفارس العربي، يقول:
ولو أن قومي أنطقتني رماحهم.....نطقت ولكن الرماح أجرتي
يقول لو أن خلفي رجال شجعان، أقويا، صناديد لرأيتم كيف تكون بسالتي وشجاعتي ونكايتي في العدو، لكن خلفي أناسا أعرف أنهم أول من ينهزم في المعركة، وأول من يهرب ولذلك تأخرت الرماح فتأخرت أنا.
والمشكلة أن العالم أحيانا يكون كالقائد بلا جنود، كما ورد:
(ياله مسعر حرب لو كان معه رجال).
أنت لو رميت هذا الحب مثلا في أرض مبلطة، هل تنتظر أن يثمر؟ لا.
الحب قابل لأن ينبت شجرا ولكن بشروط أن يوضع في تربة، ويسقى الماء، ويُتعهد ويُحمى من المؤثرات حتى يثمر، فالعالم بحد ذاته يمكن أن يحدث حركة، نشاط، علم، أمر، نهي، تغيير ولكن بشرط توفر وسائل أخرى وإمكانيات أخرى، بشرط أن يكون ورائه أناس يعرفون قدره، يحفظونه.
أما أن ننتظر من العالم أن يؤدي دوره ونحن ممن يساهم في إسقاطه صباحا مساء، فهذا غير صحيح.
كثير منا وخاصة أهل السنة –مع الأسف- أصبحنا من حيث نعي أو لا نعي نقلل من أهمية علمائنا، فإذا جلسنا قلنا مثلا:
والله فلانا من العلماء له أرض كذا وله مؤسسة في كذا، وعنده كذا وراتبه سبعين ألف ريال.
وإذا كان ذلك كذلك! هل ما هو حلال على غيره أصبح حراما عليه هو؟
من حق العالم أن يستغني، وأن يطلب الدنيا والرزق مما أباح الله له، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين.
وكفا بالعالم فخرا أن يستغني عن الحرام، ويذهب إلى الحلال المباح الذي أحله الله له،
ومطلوب منا جميعا ن نساهم في تحريك اقتصاد الأمة الإسلامية بأن يكون لكل فرد من دور.
طيب، أحيانا ما وجدنا للعالم شيء، ووجدنا هذا العالم زاهدا في الدنيا ما عند شيء أبدا، وأعرف بعض أهل العلم يعيشون في بيوت من الطين لا يستطيع الواحد منا أن يجلس فيها ساعة أو ساعتين، ركلوا الدنيا بأقدامهم وجعلوها وراء ظهورهم.

ومع ذلك ما يسلم منا هذا العالم فتجدنا نجلس وما وجدنا عليه عيب فنذهب نبحث ونبحث فنقول أولاده غير صالحين، انظر أبنه فلان في كذا وأبنه فلان في كذا.
سبحان الله! هذا إن كان صحيحا:
(فلا تزر وازرة وزرى أخرى).
(إنك لا تهدي من أحببت).
وقد يكون من أسباب ما يقع فيه ولده أن هذا العالم كان مشغولا بما هو كبر وأهم، كان يحمل قضية الأمة والمجتمع، فهو يذهب ويأتي أمرا داعيا معلما مرشدا مؤلفا باحثا، ولذلك أنشغل عن القيام بتربية أولاده، أو قصر في ذلك لانشغاله بما هو أهم من باب الموازنة بين المصالح والمفاسد.
أحيانا تجد طالب العلم ينال من العالم، فإذا أصبح الطالب يعرف شيء من العلم، اصبح لا يجد مانعا من أن ينال من أهل العلم، فيقول فلانا أخطئ في كـذا وفلان كـذا، وإذا وجـد أحـد ينقـل فتوى عالما من العلماء قال:
(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله).
يعني نحن جميعا نساهم في تقليص دور العالم، وتأخيره وبالتالي نقول ما أدى دوره.
العالم يجب أن يقول حين إذ: ولو أنا قومي أنطقتني رماحهم.....نطقت ولكن الرماح أجرتي.
الأمر السابع الذي نعلق عليه أخطاءنا فهو الحاكم:
وكما ورد في الحديث السابق حديث أبن عباس:
(صنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس، العلماء والأمراء).
طبعا الحديث لعلي ذكرت لكم أنه ضعيف لا يصح، بل قال بعض أهل العلم أنه ضعيف جدا، رواه أبو نعيم في الحلية، ولكن يحتج به الإنسان لأنه يوافق هوى ورغبة في نفسه.
فالحديث برئنا من المسؤولية وجعلنا تُبع، فإذا صلح العالِم والحاكم صلحنا، وإذا فسدا فسدنا.
والحمد لله رب العالمين، إذا فالحديث لا يصح لا متنا ولا سندا.
فنحن نقول السلطان والسلاطين ونحملهم المسؤولية، ولا شك أن السلطان له دوره، دور كبير ومن أهم أدوار السلاطين اختيار المسؤولين الأكفاء وتوليتهم الأعمال، الرجل المناسب في المكان المناسب، وهذه أهمية كبيرة حتى قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كما عند البخاري قال :
(إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قالوا وما إضاعتها ؟ قال عليه الصلاة والسلام إذا أوكل الأمر إلى غير أهله فأنتظر الساعة).
فأعظم دور للسلاطين والحكام هو اختيار المسؤولين الأكفاء ووضعهم في المكان المناسب أولا.
ثم محاسبتهم كما كان يفعل عمر فيرسل للناس :
(إني لم أبعث عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن بعثتهم إليكم ليعلموكم دينكم، وليقسموا فيكم فيئكم). يقسموا بينكم الأموال ويعلمونكم الدين.
ومن الملاحظ أن هناك تناسقا ظاهرا بين وضع الحكام والمسؤولين وبين وضع الناس، فيقول بعض أهل العلم وبعض المؤرخين:
لما وليَ أبو بكر رضي الله عنه وكان رجلا متواضعا، خاشعا ذليلا لله تعالى كان يلبس أبسط الثياب ففعل الناس مثل فعله، فوفد عليه الملوك وأمراء القبائل وغيرها من اليمن ومن أنحاء الدنيا، وكانوا يلبسون التيجان والثياب الفاخرة، فلما رأوا أبو بكر رضي الله عنه خلعوا تيجانهم وثيابهم.
حتى نقل أن ذا الكلاع وهو ملك من ملوك حمير لما رأى أبا بكر وتواضعه وزهده ولباسه خلع لباسه ولبس لباسا عاديا جدا، حتى إنه تواضع وتذلل وكان يوما يمشي في الشارع وعلى ظهره جلد شاه.
ملك، فلما رءاه القوم قالوا فضحتنا يا فلان، أنت سيدنا ورئيسنا بين المهاجرين والأنصار تحمل جلد شاة على ظهرك. فقال والله لقد رأيت خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا أرى يسعني أن أسلك غير مسلك خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)،

مادام خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يمشي في السوق، ويحمل بضاعته بنفسه ومتاعه بنفسه، فأنا مثله سواء بسواء.
ومثل ذلك الأشعث أبن قيس وغيره من الكبار الذين كانوا تعودوا على الأبهة والفخامة والملابس الفاخرة والأموال والعبيد والخدم والحشم، فلما جاءوا وجدوا أبا بكر رضي الله عنه كذلك سلكوا نفس السيرة ونفس المسلك.
ولما جاء عثمان رضي الله عنه، وكان رجل فيه سماحة وجود وكرم وسخاء، والله تعالى فتح على المسلمين الأرض والأموال فكان يعطي الناس من الأموال ويوسع عليهم ويقسم عندهم، حتى يعطيهم اللحم في بيوتهم والأطعمة والملابس وغيرها.
وبالتالي تجد المجتمع كذلك فتجد الصحابة رضي الله عنهم يتوسعون توسعا مباحا بل محمودا في بعض الجوانب، فبنوا القصور والدور والمساكن وغيرها، كما فعل مثلا الزبير رضي الله عنه في الكوفة، والبصرة والشام ومصر والمدينة، وغيره مثل طلحة ابن عبيد الله، سعد أبن أبي وقاص.
وهكذا حتى كثير منهم من خيرة أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بل من العشرة المبشرين بالجنة، ولا حرج بل إن هذا مسلك حسن من بعض الوجوه كما قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):
(نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح).
وكما قال (صلى الله عليه وآله وسلم):
(إن الله جميل يحب الجمال).
وقال عليه الصلاة والسلام:
(إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده).
فهذا مسلك حسن من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وفي كل خير.
ومثال ثالث لما ولي على ابن أبي طالب رضي الله عنه جاءه رجل فقال له:
(يا أبا حسن أجتمع الناس على أبي بكر وتوحدت كلمتهم عليه، فلما وليت أنت أختلف الناس عليك وحصل ما حصل) فقال له علي رضي الله عنه: (أتدري لماذا ؟) قال: لا.
الرجل يريد أن يحمل المسؤولية من ؟ يريد أن يحمل المسؤولية على أبن أبي طالب، لكن علي كان فقيها في سنن الله تعالى ولذلك قال لهذا الرجل:
(لأن أبا بكر رضي الله عنه كان يحكم مثلي، أما أنا فصرت أحكم مثلك).
وبالتالي فيه تناسب بين الراعي والرعية من وجوه عديدة.
وهذا أمر مطرد، ولذلك يقولون في أمراء بني أمية لما تولى مثلا هشام ابن عبد الملك وكان رجلا بخيلا ممسكا للمال وبالتالي الناس بخلوا لما تولى.
بل وصار هناك شح في الأموال وفي الإمكانيات وفي وظائف الجند، وفي غيرها، حتى قيل ما مر بالناس عهد وعصر كان أشد عليهم ولا أنكى من عهد هشام لأنه أمسك الأموال وقلت في عصره، فأمسك الناس ما في أيديهم تناسبا مع حاله ووضعه.
ولما تولى حاكم آخر قبله كعبد الملك كما هو معروف وكان يحب الشعر، ولذلك كثر الشعر في عصره ووجد الشعراء مثل جرير والفرزدق والأخطل.
وكان الرجل أيضا عنده إسراف في الدماء والقتل ولذل سخر له من الأعوان من يكون على شاكلته في أكثر البلدان، ولعل من أشهرهم الحجاج أبن يوسف، وكذلك أخوه محمد أبن يوسف في اليمن وغيرهم من الأمراء الجورَه الذين كانوا يفتكون بالناس ويسفكون الدماء.
إذا فيه تناسب وهذا صحيح، لكن هل التناسب بسبب أن الحاكم من الرعية؟
أو بسبب تأثير الحاكم على الرعية ؟
كلاهما موجود وكلاهما واقع، فالحاكم واحد من أفراد الناس يوما من الأيام، مثله مثل أي واحد منهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن له تأثير أكبر من أي إنسان، وهذا لا يُعتقد أنه موضع خلاف.
لكن ينبغي أن ندرك نه حتى حين نتصور أن هناك حاكما أو سلطانا في أي بلد استبد بالناس وأفقد الناس قيمتهم، وجعلهم أصفارا، فإن هذا الأمر يرجع إليهم هم.

بمنظار الشارع يقول الله عز وجل مثلا في القرآن الكريم قاعدة يرسيها الله تبارك وتعالى:
(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون).
مولي بعض الظالمين بعضا، أي نجعلهم أولياء، فمثلا يوم كان الناس أمثال قارون وهامان وأمثالهم سلط الله عليهم فرعون.
ويوم كان الناس مثل عمر وعثمان وعلي والزبير وطلحة وسعد قيض الله لهم مثل ابي بكر رضي الله عنهم أجمعين.
ولما فسد أمر الناس فسد أمر ولاتهم، فالمر فيه تناسب:
(نولي بعض الظالمين بعضا).
ولذلك يقول بعضهم أن الله قيض لعمر أبن عبد العزيز لما ولي أمثال رجاء أبن حي وغيره من الأتقياء العباد الزهاد الفقهاء، وكذلك قيض لعبد الملك ابن مروان وأمثاله الحجاج أبن يوسف وأمثاله من الفساق الضلال الظلام.
وهكذا تأتي القضية (نولي بعض الظالمين بعضا).
ويقول الله تعالى عن فرعون:
(فأستخف قومه فأطاعوه، إنهم كانوا قوما فاسقين).
ما كان فرعون يستطيع أن يقف خطيبا في الناس ليقول:
(أنا ربكم الأعلى).
ويقول (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري).
ما كان يفعل ذلك لو أنه عرف أن أمامه أناس لا قيمة لهم، ولا يمكن أن يردوا عليه، ولا يقاموا بطشه وظلمه بأسه وعناده، بل هم يؤمنون على ما يقول خطأ كان أم صوابا، حقا كان أم باطلا، ولذلك أصبح يقول ما يقول دون أن يتوقع من أحد أن ينكر عليه أو يرد عليه ما قال.
فهناك هناك تناسب واضح وما يقع من هؤلاء فبسبب أن الناس فقدوا شعورهم بقيمتهم كأفراد، فقدوا شعورهم بمسئوليتهم فتسلط عليهم هؤلاء.
الأمر الثامن من الأشياء التي نعلق عليها أخطاءنا هو قضية الكيد الخارجي:
وهذا أمر الكلام فيه يطول لكنني لا أري أن أطيل فيه، لأننا كثيرا ما نرتاح ونستأنس حينما نتكلم عن الكيد الخارجي لأننا أصبحنا أبرياء، لماذا ؟
لأن اليهود هم الذين فعلوا وخططوا، حكماء صهيون، الماسونية، الشيوعية، النصارى، المشركون، الكذا، الكذا.
المهم أصبح أمامنا الآن ألوف مؤلفة من الأمم والأديان والنظريات والمذاهب والجمعيات السرية والمخططات، أصبحنا نلقي عليها كل أخطاءنا.
وهذا مهرب نفسي واضح، ولذلك تجد أن الناس يكثرون من الحديث عنه ويرتاحون لذلك أشد الراحة، حتى أنك تجد الأمة على مستواها العام تلقي بالمسؤولية على من ذكرت.
لكن حينما تنتقل إلى الخاصة من الأمة وهم الدعاة، إلى الله في كثير من البلاد تجدهم يلقون بالمسؤولية عن الأشياء التي وقعت لهم، فلا يقولون نحن المسؤولون، بل يقولون المسؤولون هم الحكام في تلك البلاد.
مثلا حاكم بطش بالدعوة في بلد ما، واضطهد وعذب أذى وقتل وعلق على أعواد المشانق، وهذا حدث في بلاد عديدة.
قل ما تجد داعية يقوم فيقول نحن المسؤولون، ويحلل الموضوع ليخرج بنتيجة أن هناك أخطاء في الدعوة، في طريقة الدعوة، في سلوك الدعاة، في أساليبهم كانت أثمرت هذا الاضطهاد.
بل يكتفي بأن يقول هذا هو فعل الحاكم الذي اضطهد وأذى المؤمنين واعتدى عليهم، وانتهت القضية بأن الحاكم هو المسؤول، وخرج الدعاة أبرياء من كل مسؤولية.
والأمة كذلك اليهود والنصارى هم الذين خططوا وفعلوا وأوصلوا الأمة إلى ما وصلت إليه، أما الأمة فبريئة وما فعلت شيء تعاب به.
وهنا نقول كما قلنا سابقا نرجع لمسئوليتنا نحن يقول الله عز وحل حينما ذكر كيد المشركين:
(وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا).

لم يكن كيد الأعداء ليبلغ ما بلغ لولا كنا أهل صبر وتقوى:
(وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا).
فالله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين أمنوا ويحميهم ويحفظهم من كيد أعدائهم، وإنما الأمر كما قال أحد المفكرين الغربيين :
(إن الأسباب الحقيقة لكل انحطاط هي أسباب داخلية وليست خارجية).
داخلية وليست خارجية، ثم قال:
(وليس علينا أن نلوم العواصف إذا أسقطت شجرة نخرة، لكن علينا أن نلوم الشجرة نفسها).
شجرة أصلا تتمايل آيلة للسقوط فجاءت عاصفة فأسقطتها وجعفتها، ليس المسؤول عن ذلك العاصفة وإنما الشجرة أصلا كانت مهيأة لهذا الأمر.

أختم الحديث بالنقطة الأخيرة والمهمة وهي كيف نستطيع أن نشعر الفرد بأهميته ؟

كيف نستطيع أم نحل المشكلة هذه ؟ نستطيع أن نحل هذه المشكلة بستة حلول أذكرها بإيجاز :
1/ من الضروري أن نشعر بالمسؤولية جميعا.
وهذا ضروري أن نحس بالمسؤولية، وأقول أحبتي لو خرجنا من هذه المحاضرة وكل فرد منا يحس بأنه مسؤول، أعتبر هذا كسبا عظيما، ونتيجة جبارة، وهذا أمر واضح لأن الأمر كما قرأت لكم:
(إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدهم عدا، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا).
ويقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحديث المتفق عليه عن أبن عمر:
(كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).
ما استثنى أحدا (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى المرأة، حتى الولد، حتى العبد مسؤول في مال سيده ومسؤول عن رعيته، الجميع راع ومسؤول عن رعيته، إذا القضية الأولى أن نشعر جميعا بالمسؤولية اتجاه ما يقع في القريب والبعيد، لا بد من ذلك أولا.
2/ من أهم الوسائل تحقيق الشورى.
أحرص على تحقيق الشورى ولها أثر عظيم في إشعار الفرد بقيمته، وذلك لأنك إذا استشرت الإنسان جعلته أما مشكلة يفكر فيها ويحس أنه طرف فيه.
الشورى على كل مستوى، خذ مثلا أنت تريد أن تربي أولادك أستشرهم في أمورهم.
إذا أردت أن تشتري له ثوبا أو حتى لعبة أو أي قضية فأجعل له رأي في هذا الموضوع.
عوده على أن يساهم في التفكير في هذه القضايا وأن لا يكون تعود على أن هناك أشياء تفرض عليه وتقدم له فقط، لا بد أن ننفذ الشورى.
الأستاذ مع طلابه، الداعية مع من يدعوهم إلى الله ويربيهم على المنهج الصحيح، فيربيهم على الشورى، وأن يكون الأمر أمرنا جميعا هذا شأننا كلنا، حتى لو فرض ووقع خطأ في ما بعد نتحمله جميعا، فلا نرجع ونقول أنت المسؤول فأنت فعلت شيئا باستبداد دون رأي منا ولا مشورة.
لا نحن جميعا تشاورنا وانتهينا إلى هذا الأمر فإن كان خطأ فنحن جميعا مسؤولون عن هذا الأمر الذي وقع، ولهذا لم يكن أحد أكثر مشاورة من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لأصحابه مع أنه معصوم ومؤيد بالوحي من السماء، لكن ليعلم الناس إن من أهم وسائل إشعار الناس بقيمتهم أن يشاورهم، ولذلك لا شي يذهب قيمة الفرد مثل الاستبداد.
إذا كان الإنسان مفروضا عليه كل شيء حتى الأثواب التي يلبسها، والمدرسة التي يدخلها، والعمل الذي يقوم به، والكتاب الذي يقرأه، والشريط الذي يسمعه، كل شيء مفروض عليه وليس له فيه خيار.
هنا يفقد الشخص قيمته كإنسان ويصبح مجرد آله.
3/ أن نحرص على أن نُشرك الناس في تحميلهم المسؤولية.

في كل شيء، في الدعوة، في التعليم، في قضاء الوقت، ونجعل للسمع والطاعة حدودا، والمشكلة أحيانا أننا نخلط بين قضية السمع والطاعة، أو نجعل السمع والطاعة بديلا عن قضية تحمي الناس المسؤولية.
أنت إنسان في عمل معين أستاذ، مشرف في مدرسة.
في مركز صيفي، في حلقة تعليم، في حلقة تحفيظ قرآن.
أب في بيتك كما أسلفت، أي صورة من الصور.
فرق بين أن تكون والله همك أن تعود من أمامك السمع والطاعة، لأن كثير من الناس يطيـب له ويلذ له أن يكون سيدا زعيما إذا أشار قال الناس سمعا وطاعة، سمعنا وأطعنا يعجبـه ذلـك ويرتاح له.
لكن لا، لا ينبغي أن ننساق مع هذا الأمر الذي نحبه، ينبغي أن ندرك أنه يجب أن نربي الناس على أن يكون لهم مشاركة حقيقة في تحمل المسؤولية، هذا له كذا وهذا له كذا.
ولذلك نجد بعض العقلاء المدركين الفاهمين في أمور الإدارة، تجد أنه إذا كان لديه عمل يوزعه بين مجموعة، أنت عندك كذا، عندك كذا، وهكذا، وبالتالي هو مجرد مشرف يتابع ما يحدث.
رحلة يريد أن يخرج بها مجموعة، بدلا من كون الإنسان هو كل شيء من الألف إلى الياء، هو الذي يعد البرامج الثقافية والعلمية، وهو الذي يأتي بالأطعمة، وهو الذي يأتي بالأواني، وهو الذي منه السيارة، وهو الذي يحدد المكان، وهو الذي يحدد الزمان، لا، جعل كل إنسان له دور، وهو له دور آخر، يمكن أن يكون مع هؤلاء جميعا أو فوقهم أيضا، المهم كل إنسان له جزء من المسؤولية يتحملها وبالتالي برزت شخصيته وأصبح إنسان يشعر بقيمته وليس مجرد شجرة صغيرة نبتت في الظل، ليس فيها قوة ولا نماء ولا خضرة، لا هذا لا يصح.
مثلا موضوع التعليم، الآن في كثير من الأحيان تجد التعليم يعتمد مثل ما نحن الآن واحد يتكلم والبقية يستمعون ويسجلون.
حتى في الجامعات مثلا وغيرها أستاذ يلقي والطلاب يكتبون، وفي النهاية يختبرون، إذا لم يعد للطالب دور، لم يعد له مسؤولية، لكن عند السلف على الأقل كان الطالب يحفظ ويقرأ وبالتالي له دور في التعليم، يشارك في العملية ويتحمل قسطا من المسؤولية، فظلا عن قضية إعداد البحوث، فظلا عن التدريس أحيان، فقد كان الطالب يشارك في التدريس وكان السلف يسمونه معيدا لأنه يلقي ويعيد الدرس بالنيابة عن الشيخ، فيكو هناك مشاركة في تحمل المسؤولية.
4/ التربية على الإقدام ونزع الخوف من الفشل.
كثير من الأحيان الإنسان يستطيع أن يعمل أشياء كثيرة، لكن يمنعه شيء وهو الخوف من الفشل، مثلا تريد أن تتكلم أمام مجموعة من الناس بنصيحة أو كلمة توجيهية، أول أمر يخطر في البال ممكن تفشل، لما تقف تغلق الأبواب في وجهك فلا تستطيع أن تتكلم في شيء، يرتج عليك أو تقول كلام خطاء أو ترتبك.
إذا خوف الفشل يدعوك إلى الإحجام، قل مثل ذلك في أي عمل علمي أو تجاري أو دعوي فإذا الإنسان يمنعه الخوف من الفشل من الإقدام على هذا العمل، والواقع أن الإنسان يحتاج إلى قدر من الإقدام والشجاعة مع الضبط والحكمة والتخطيط السليم، ولإعداد الجيد وحتى يبني نفسه بناء جيد ويشارك في تحمل المسؤولية مشاركة فعالة.
5/ إعطاء الفرد دوره في النقد والتصحيح.
الابن، التلميذ، الشخص، الداعية، المواطن أي إنسانا يعطى دور في النقد.
كما كان عمر رضي الله عنه، من أقوى الشخصيات، كان الشيطان يخاف منه حتى أنه يهرب منه إذا راءاه في شارع (ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غير فجه).
الناس يخافون منه، أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يضطرب أحدهم إذا دعاه عمر فكانوا يصححون له، ولعلكم تعرفون أمثلة كثيرة منه قصة الرجل حينما قال عمر:
أيها الناس أسمعوا وأطيعوا.
قام رجل وقال لا يا عمر، لا سمع ولا طاعة.

قال لما رحمك الله؟
قال عليك ثوبين ونحن على ثوب واحد، لا نسمع ولا نطيع.
قال عمر أين عبد الله، فقام أبن عمر وقال ها أنا ي أمير المؤمنين.
قال عمر أنشدك الله من أين لي هذا الثوب ؟
قال والله هو ثوبي أهديته لك يا أمير المؤمنين.
فقال الرجل الآن يا عمر قل نسمع ونطيع.
وتعرفون قصة المرأة إن صحت، وقد حسنها السيوطي وغيره، لما وقف عمر وقال لا تغالوا في صدوق النساء، فقامت امرأة وقالت أخطأت يا عمر فالله يقول:
(وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج، وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيء) ويروى أن عمر قال أخطأ عمر وأصابت امرأة. حت على المنبر يعلنا ما فيه مانع، ما ينقص ذلك من قدره ولا زالت الأجيال تتمدح وتتمجد بهذه الأعمال الجليلة والمواقف التي تدل على الثقة بالنفس وقوة الشخصية.
6/ عدم المبالغة في العقاب.
نعم عدم المبالغة في العقاب على الخطاء، يعني داعية أو موظف عندك أو أبن أو أي نوعية من الناس لك ارتباط به وقع منه خطاء، هنا يجب عدم المبالغة في عقابه على الخطأ في الصورة التي تجعله في المرات القادمة يحسب ألف حساب ويتولد لديه خوفا شديدا.
فمثلا الأب الذي يعود أولاده عل أنه يضربهم بقوة على أي خطاء، تجد هؤلاء الأولاد دائما عندهم تردد وخوف وهيبة ولا يقدمون على شيء أبدا، ليس لديهم ثقة بأنفسهم، قد يكبر الواحد منهم ما عنده ثقة بنفسه لأنه تربى على هذا الأمر.
فيجب أن ننتبه إلى هذه الأمور وبعضها تربوية يحتاج إلى أن تتربى عليه الأجيال حتى يخرج عندنا أجيال واثقون بأنفسهم.
وفي نهاية المحاضرة أقول كما قلت في عنوانها:
نحن جميعا وبشكل فردي المسؤولون مسؤولية كبيرة عن ما يحدث لنا أفرادا، وعن ما يحدث للأمة في مشارق الأرض ومغاربها.
أقول هذا القول وأستغفر الله لي ولكم.
وصلى الله على نبينا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين.

.....
تم بحمد الله وتوفيقه
اللهم أجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم...